أيام السرطان

قصة بقلم عبد الهادي البكار

دس رأسه تحت الوسادة ، وجعل الوسادة الثانية فوق جمجمته، وطوقها بذراعه اليسرى ، بينما راحت انامل كفه اليمنى تضم محجريه ، لتحجز عن عينيه ، وبشكل حاسم ، كل ما يمكن ان يتسرب اليهما من وهج الظلام ... فلقد اعتاد على تكثيف ومضاعفة الظلمة في عينيه ، بهذه الطريقة ، منذ ان كان طفلا ، في القرية الغافية على سفوح جبل تعيش في كهوفه صقور هزيلة .

حينذاك ، كان يرى اباه الشيخ ، يغفو على هذا الشكل في فراشه . وكانت تثيره هذه الحركة الشاذة .. غير انها ما لبثت ان صارت عادته الموروثة عن ابيه .

كان يلذ له ، منذ ان بدأ يمارس هذه العادة الموروثة ، ان يتابع وهو مغمض العينين ، رؤيته لدوائر سحرية تتحرك ، سوداء وخضراء غامقة ذات اطارات مذببة ذهبية ، تسبح في فضاء اسود ، لا متناه... غامض .

احيانا ، كانت الدوائر السحرية تتوسع او تضيق ، تتكاثر او تقل ، تختلط او تتهادى منفردة ، تبعا لقدرة ضغط انامل الكف المبسوطة فوق المحجرين ، على الجفنين المحدودبين .

كان يمتعه شعوره بالاندهاش الطفولي ، وهو يتابع ـ قبيل الاستسلام الى الاغفاءة بلحظات ـ رؤية هذه الدوائر العجيبة ، تتحرك في فضاء من الالوان السوداء او الخضراء الغامقة ، فيما تحت جفنيه المسدلين .

لم يكن يتساءل عن سبب تشكل هذه الدوائر العجيبة التي تشبه احيانا برزخا ذا شواطىء متعرجة ، بلون الذهب ، في عينيه المغمضتين.

كان يكتفي بالاستمتاع الجاهل بها ، دون ان يتجاوز يوما حدود هذا الاستمتاع الى محاولة السؤال عن اسباب منشئها وتشكلها ، وكيف تتكون في عالم هذه الرؤية السحرية الخاصة .

غير ان رؤوس انامله الليلة (وهو يدس رأسه تحت الوسادة البيضاء ، في الساعة الخامسة صباحا تماما ، ويضم محجريه بانامل كفه اليمنى ، كعادته كل ليلة) .. لم تفلح وهي تمعن في الضغط على الجفنين ، في خلق هذا العالم الخاص المثير ، الذي اعتاد على العيش فيه لحظات تسبق الانزلاق في سراديب الاغفاء والسبات .

كان الوقت صباحا ..

وصوت مؤذن الصبح يصل الى اذنيه من مئذنة جامع « المنصور » القريب من المنزل الذي يسكنه في بغداد .

كانت تباشير الحركة النهارية ، تحتل شوارع المدينة شيئا فشيئا: نباح كلاب مشردة في الازقة والشوارع ..

هدير سيارات عابرة ، يشتد .. ثم يغيب ...

وجلبة عمال .. خفيفة .. ذاهبين الى اعمالهم .. تصل اليه منهم كسرة صوت صباحي ،او نغمة سعلة طازجة .

كان يدرك جيدا انه يحاول عبثا الانزلاق في سرداب النوم ..

وكان يعرف ان انامله الليلة ، لن تفلح في رسم البحار البرزخية السوداء ذات الشواطىء المتعرجة المتحركة ، الشبيهة بقطعة دانتيل ذهبية .

كانت مخارز القلق تغوص في كبده .. تمزق رئتيه .. تثقب امعاءه بجنون وشراسة ...

تقلب في الفراش .. مثل جريح بالرصاص ،تجندل فوق ارض معشبة .. غطتها ثلوج بيضاء ، تمتص دماءه المنسكبة من نافذة الجرح القاتل في الجسد .

كان وحيدا في سريره الحديدي المطلي بلون بني يوحي بلون الخشب .. وحيدا في الغرفة التي اعتادت على ان تشهد ساعات انطوائه وانكفائه ، وصلاته الصامتة التي تشبه صلاة الرجال غير الميتين ، الساقطين يوما من القمة نحو قاع السفح ـ بشكل مفاجىء ـ .. اولئك الذين كانوا رجالا ذات يوم ، وابطالا عمالقة على القمم ، ثم لم يبق على اذرعهم بعد السقوط ، عضلات ولا سلاح ، وصارت الدموع والصبر ، سلاحهم الباقي الوحيد ، بعد ان صاروا على السفوح ديدانا تتلوى ، وتزحف متسللة بمذلة نحو المقابر ، والجيف ...

كان ثمة ممر صغير يفصله عن الغرفة المجاورة التي تنام على سرير اخر فيها ، المرأة الجميلة التي تزوجها الرجل ، عندما داهمته هامسة : « احبك ايها الرجل القوي . احبك حبا يشبه نارا وجمرا لا يصير رمادا » . ولقد كان ذلك قبل ثلاثين شهرا ، ولم يكن ذلك قبل ثلاثين من الدهور .

فجاة ، وجد الرجل نفسه يمارس طقوس الالم الرهيب :

كز على فكيه حتى كاد الفكان ان يصبحا واحدا .

شد الوسادة بعصبية وعنف الى وجهه يغمره بها ، وعض على قماشها باستكلاب مروع ...

وتوترت اعصاب كفيه وقدميه .. وخار بهدوء مثل اسد قوي داهمت عرينه صخور زلزال مفاجىء ، وتراكمت اطنان الاربة فوق ظهره ولبدته .

لم يقل الرجل الذي صار طفلا ، لم يقل كلاما .. بل خار من الالم ، وانساخت عبر كفيه دموع مالحة غزيرة ، رافقتها اصوات نحيب واجهاش .

كان (الرجل القديم) ينتحب وحده ، مجهشا بغزارة .. « فالرجال عندما تعز لديها كل انواع السلاح ، تصير اطفالا ، وتنقذها الدموع والصمت والصبر من خلود اليأس في نفوسها » قال ذلك مرة لرفيق له ، لانه كان يدرك منذ اشهر انه بدأ يتحول من رجل الى طفل ... واخيرا كان يسمي نفسه : (الرجل ... سابقا) !

كانت دموعه تنساب عتابا لنفسه .

وكانت آلام السرطان التي فتكت بثلاثين شهرا من عمره حتى الان ، تغوص كالمخارز الحادة في قلبه الذي داهمته يوما رياح السرطان ، رافعة في غزوها لقلبه ، راية الحب الكاسح الذي يدمر .

***

انه الليلة ، يذكر جيدا ، كيف كان يوم داهمه السرطان لاول مرة ، من خلال عيني الفتاة الجميلة التي صارت من بعد رفيقة ايامه :

من بؤرتي عينيها الواسعتين ، قفز السرطان اليه ، حين كان على القمة ، رجلا قويا معافى . وفي اليوم الذي سقطت في عينيه من على اهداب المرأة الجميلة ، جراثيم السرطان الرهيبة ، كذرات الغبار، اصابه العمى ، وتاهت في طريق المغامرة من اجل الحب ، قدماه .

---

(1) من مجموعة « الكلاب واللحم المسموم » (ستصدر قريبا) .

كانت جراثيم السرطان ، تصرخ وهي تغزوه لاول مرة :

ـ « احبك . احبك ايها الرجل القوي المعافى . احبك حبا خالد اللهب والتاجج » .

ثم ما لبثت ، حين استسلم اليها في ليلة محشوة بالعتمة الكثيفة، وحين صارت قدره ورفيقة ايامه ، ان شرعت تحرث في اعصابه وفي قلبه ، بخراطيمها البالغة المضاء ، لتزرع فيها القلق اليومي الى الابد .

انه الليلة ، يتذكر جيدا ، كيف كانت تهمس فيه ، وهي في طريقها لاحتلال عينيه وقلبه :

ـ « احبك .. وآتي اليك اليوم ، لاجعل من عينيك بؤرتي اشعاع بالامان والاطمئنان . فانت ستسعد ، لانني احبك ، وساظل احبك حتى يصير الجسد رمادا متحدا بالتراب » .

غير ان موسم السعادة لم يكن سوى وعد كاذب ، ووهم وخيال . وهو الان مفجوع الى حد النحيب ، لان الرجال الذين يسقطون من فوق القمة نحو السفوح ذات الصخور الناتئة ، ولا يموتون ، يصيرون اطفالا، اذا هم لم ينتحروا ... اذا هم لم يسعفوا رجولتهم بالانتحار .

كان (الطفل) (رجلا) ذات يوم ...

وعلى صخور السفوح صار الان اشلاء ممزقة كانت قديما في شكل رجل من الرجال .

وحين كان صقرا ، يفرز مخالبه الحادة في صخور القمم ، ويحفر بمنقاره في جدران الكهوف الصلدة ، لينحت له فيها عشا وعرشا .. لا يعرف السفوح ، ولا ما في السفوح من عشب وديدان حقيرة تعيش بالزحف الذليل المتسلل نحو الجيف ، الا بنظرة من فوق ... حين كان كذلك ، داهمته جرثومة الحب السرطان ، وهمست به : (احبك) . ولان الرجال الحقيقيين « طيبون » فقد استسلم اليها ، واهداها مفاتيح خزائنه كلها ، حتى مفتاح مصيره ، كان لها منه ، من بعد ، هدية محب من الصقور ، لا يعرف الخداع ولا الرياء ولا الكذب . ويوم شرعت تحرث في اعصابه ، لتزرع فيها القلق المضى .. كان وجهها الحلو القديم ، قد تغير ... وكان الشاعر الصقر قد صار في السفوح ، عبدا ضعيفا ، لا يملك غير الدموع والصبر سلاحا ... يسحقه مرض عضال اسمه السرطان .. اسمه الحب .

بعد فوات الاوان ، عرف (الرجل المباد) ، ان الوجه الحلو القديم لم يكن سوى قناع اخفى حقيقة الوجه الاصيل . كان الوجه الاصيل قطعة لحم بارد ، لا ملامح فيها ، لا لسان يقول الكلام الحلو ، ولا لهاة تغني قصائد الحب المعافى .

حدث رهيب ان تكون جرثومة مرض الحب (التي سقطت في عينيه من اهداب المرأة الجميلة ، كذرات الغبار ، ذات يوم قبل ثلاثين شهرا) جرثومه مرض فتاك ، يأكل العمر ، والرجولة ، ومعادن السلاح ، والقوة .. ويبتلع نصلات كل الخناجر والسكاكين ، بشراهة حيوان وحش ، جاع اشهرا ، ثم سقطت تحت فكيه وعلة ضلت من اسراب الوعول الشاردة ، في غابات الشجر الكثيف ، فراح يمزق لحمها ، وهي حية ، بجنون الجوع الطويل الذي يشبه هول المقابر .

انه الليلة ، والساعة قد جاوزت الخامسة صباحا ، يعاني من نوبة الم جديدة ، من نوبات هذا الداء التاريخي الرهيب :

يكز على فكيه ..

يعض على قماش الوسادة البيضاء ليكبت في حلقومه شلالا زخما من الصراخ الدامي ، الباحث عبثا عن منفذ ينفجر منه ...

انه يعرف انها ليست سوى نوبة واحدة مكررة ، من سلسلة النوبات المشابهة التي صارت طابع حياته المميز معها ، بعد ان خسرت الايام القناع المزيف عن وجه الشيطان في المرأة ، وصرخت في اعصابه التي كانت يوما اعصاب صقر من الرجال :

ـ « تمددي . تمددي . فبخرطومي الحاد ساحرث فيك ، لازرع القلق الى الابد ، باسم الحب ، واوهام الحب » .

***

كان مصباح الغرفة المجاورة ، غير مطفأ ...

وكانت المرأة الجميلة في سريرها ، غارقة في احلام اليقظة .. وفي عالم : لها ، خاص ، بعيد ... بعيد ...

ساعات عصيبة من التشاحن الثنائي ، والصراخ المتبادل ، مرت ، من الثانية عشرة ، الى الخامسة من الصباح ...

كانت الفتيلة التي اشعلت الحرائق في الغاب ، قشة صغيرة ، حارة ، غير ملتهبة . ومع ذلك ، احترق غاب الزوجين ، وليلهما .

لم يكن ثمة سبب كاف للتشابك الثنائي ، وشظايا الصراخ المتبادل، وامتداد الحرائق في كل جنبات الغاب . غير ان المرأة حين تصير حطبا يابسا ، ويجف الحب الذي كان يرويها ، ويورق الايام والاغصان لديها ، يسهل عليها ان تشتعل ، مثل كل حطب يابس . (شرارة نار واحدة ، تشعل الف غاب من شجر المطاط ، يوم تفيض المياه والنسغ في الجذور ، وتموت في اعماق التراب اصابع اقدام الشجر ، وتتحول الجذوع السامقات الى حطب ، وتصير الاغصان المورقة ، اذرعة مفلوجة من خشب مصيره فحم ، او نار لاهبة .. وحرائق !) .

تساءل الرجل بمرارة :

ـ « ثلاثون شهرا .. هل تكفي لتجفيف جذور المرأة الشجرة ، وجعلها بلا حياة ولا نسغ ، مثل اصابع اقدام الانسان القديم المفلوج ؟ ثلاثون شهرا .. ثلاثون شمسا .. ثلاثون صيفا وسنة .. هل تكفي لتحويل غاب شجر المطاط المعطاء ، الى غاب حطب وخشب يريد ان يصير فحما ، او ينفجر نارا وحرائق ؟ » .

خمس ساعات رهيبة من التشابك والصراخ المتبادل ، مرت، وكانت عينا المرأة رفيقة عمره خلالها ، عيني غريب فاجر ينفجر في وجه غريب وحيد . وكلماتها ، كل كلماتها ، كانت تومىء بوقاحة جامدة ، الى بدء نهاية مواسم الحب ، حيث على احباب الامس ، الذين تحابوا، وتزاوجوا ثم صاروا اعداء ، ان يهاجروا عن المنازل التي جمعتهم ، وان يذهب كل في درب جديدة ، وحيدا ، في بحر المفاجآت والمصادفات ...

كان يتمتم بقلبه الواجف ، وهو راكع كالعبد الضخم ، امام المأساة:

ـ « غير ممكن .. غير ممكن ..

ليست العينان هاتان الجديدتان ، المحشوتان كراهية وفقرا وغبارا، عينيها القديمتين ...

وصوت النحاس الفاقع الليلة هذا ، ليس صوتها .. ليس صوتها

قريبا

حكايا للحزن

مجموعة قصص جديدة بقلم

اديب نحوي

مؤلف « حتى يبقى العشب اخضر » و « جومبي »

منشورات دار الاداب

العودة الأخيرة

عاد الراحلون
من رحلتهم ، عادت سفن الامس الضائعة الاحلام
قطعت بحر الالام ..
عادت ترفع راية ما لم يأت من الايام
.. صاحبنا نجم الدين هديته لي : ـ
كتب من التفسير ومعرفة الطالع
وكتاب في اصل الجيل الرابع
من سكان الكرة الارضيه
وكتاب عن كيف يضيع الزمن الضائع

***

قلبي افاق عشاق
سافر ذات مساء لبلاد تسكنها جنيات خلف البحر
قلبي .. هل انت حجر ؟
تتركني اتمزق وحدي
نتمزق فوق شفاهي اغنيه
اه .. ما احلى الصبر .. !
عادت سفن الامس وهانذا اقرأ .. اتأمل ما خبأه الطالع
لم يعلم نجم الدين صديقي .. ان الزمن الضائع
قلب ضائع

***

هذا يوم جمعه
ساعة نحس لو لاح زحل
مسبحتي بيميني تهتز
وتهز الجامع كلمات امام الجامع : « ان عذابي واقع »
ونسينا انفسنا في المسجد لحظات
وقضينا الجمعة ثم تذكرنا اخر قصتنا
و عينا في الارض عذابات وبكاءات

***

عادت سفن الامس الضائعة الاحلام
قطعت بحر الالام
عادت ترفع راية ما لم يأت من الايام
ما لن يأتي من ايام

نصار محمد عبد الله

كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ـ جامعة القاهرة

ابدا .. غير ممكن ان يكون صوتها .. غير ممكن ان يصير الهمس والحنان ، بعد ثلاثين شهرا فقط ، حزمة اصوات نحاسية ، تتقيؤها حنجرة حديد فاجر . غير ممكن ان يصير الحب العطاء ، داء سرطان يأكل العمر ، والايام ، بانياب الشراهة والالم ... غير ممكن .. غير ممكن » .

وفي الحقيقة ، كانت العينان العدوتان الليلة ، هما عينيها ..

والصوت النحاسي الجاف الفاقع ، الليلة ، كان ايضا صوتها الهامس القديم نفسه ...

وكل ما جد في الامر ، ان ثلاثين شهرا مرت على زواجهما حتى الان ، وسرطان الحب ، صار مرضا ، وألما ، ليس غير .

ساعات ..

ساعات خمس من التشابك والصراخ المتبادل ، مرت ، وكان عليهما اختيار الانعزال ، كلا في غرفته ، حلا مؤقتا لرهبة ليلة القلق ، حتى الصباح .

وفي خزانة الجدار ، كان ثمة حقائب سفر خمس ، محشوة بالملابس النسائية تنتظر بزوغ الفجر ، لتبدأ رحلتها البعيدة عن الزوج ، التي لا عودة بعدها ابدا ...

***

عندما ذاب نور مصباح غرفتها في وهج الصباح والشروق ، وصار الوقت ضحى .. كان وجه (الرجل القديم) الذي صار طفلا ، من وهن القلق ، ودفق شلال العذاب فوق نفسه ، مثل وجه كلب جاع ومات على رصيف شارع مهمل ، فوق الصقيع ، دون ان يسمع احد انينه وعواءه ، لسبب وحيد : ان الكلاب الصابرة ، تموت ، دون ان تعوي ، لانها يوما كانت من الاسود ، والاسود التي تصير كلابا ، لا تزأر ، ولا تعرف العواء .. ولا انين الشكوى . الاسود التي تصير كلابا .. تموت .. صامتة .. وحيدة .. بلا انين ولا توجع . كذلك الرجال الذين يصيرون اطفالا ...

كان مصباح غرفتها ، عندئذ ، مثل اجاصة مشنوقة ، تتدلى من السقف الكالح ، بحبل دقيق ، صفراء ، بلون الليمون .

كانت تصل الى اذنيه عبر نافذة الغرفة الجنوبية في تلك اللحظات ، زفزفات عصافير افاقت تستقبل شعاع شمس يوم خريفي اخر ..

.. وعلى رف النافذة الخشبي الخارجي ، وقف عصفور صغير ، يغني ، يطل بفضول بريء رقيق ، نحو داخل الغرفة ، عبر لوح زجاجي (مفبش) من الداخل ببخار الماء . حينذاك ، كانت عينا الرجل القديم ، تطلعان بلهفة مفاجئة نحو عصفور الصباح اللطيف ... وكانتا من النحيب والدموع ، مثل عيني خروف ذبيح ، بلا اهداب ، سلخ جلده ، وتم كيه في فرن كهربائية ! ومع ذلك .. كان قلب الرجل القديم في تلك اللحظات ، يخفق بالحب والحنان والتسامح .. رغم كل هذا الشقاء .

بهدوء .. جلس الرجل واقفا .. وكانت الساعة في معصمه تشير الى السابعة صباحا ، وعشر دقائق ... ثم اتجه نحو الممر الفاصل بين الغرفتين .

وبحرص شديد ، دفع الساهر المتعب باب الغرفة الاخرى المجاورة ، فانشق قليلا ...

كانت المرأة التي احبها ثم تزوجها قبل ثلاثين شهرا فقط ، بعد أن حاولت الانتحار من اجله مرتين ... كانت تغط في اللامبالاة ، وفي النوم العميق العميق !! وكانت شوارع المدينة قد حشاها ضجيج نهاري (*) ...

بغداد

عبد الهادي البكار

(*) من مجموعة « الكلاب واللحم المسموم » التي ستصدر قريبا.